كيف أحرقت طفلة ؟

بقلم علي محمد علي الحسني

أتحسب ان ليس في جسم الميت وحدات تدب فيها الحياة وتشيع الحركة ؟

◎◎

قلت لصديقي وهو يعبث باصابعه وكأنه يتهرب من الواقع المرير بهذا العبث البريء : قد تستطيع يا صديقي ان تخفي عن الناس جرائم سافتك اليها رجلاك واستدت نحوها يداك فتسلم من عقاب القانون وتأمن ألسنة الناس وازدراءهم في حضرتك او غيبتك ولكن نجاتك من عقاب القانون لا تجديك نفعاً في التخلص من عقاب اعض ايلاما واشد عذابا ، انك لابد ذائق هذا العذاب عذاب تبكيت الضمير اللهم الا اذا كنت ممن ماتت ضمائرهم وهم كثرة في هذا الزمان

قال : هذا أمر لاأشك فيه .

قلت : وما ذكرت هذا لذاته ولكنني قلته لاقول بعده انه كثيراً ماترتكب يداك آثاما وجرائم تتساقط منك وكأنها كرات ملتهبة تتدحرج فيما حواليك فتنشر في الارض الفساد والدمار . فهذا عقب سيجار تقذفه يداك على غفلة منك يحرق لهذا المسكين كوخا هو كل ما عنده في الحياة وهذا شاب يتدفق حيوية ونشاطاً تنقل اليه جرثومة السل ـ مثلا ـ فتأتي على انسجة جسمه اليافع هدما وتخريباً ثم تسلمه الى القبر بعد شهور ، وهذه فتاة نضجت انوثتها فتفتحت وردة ضحكت وريقاتها فتنة وجمالا واشرقت فيها عبقريتها فانتمت الى احسن المعاهد العالية خدمة ومستقبلا يمتد اليها طرفك فيوقد في قلبها جذوة الحب تصهر روحها فتذوب الماً وتسقط فحمة وكان في الامكان ان تكون فرقدا . يقع هذا وتقع امثاله وانت سائر في دربك لا تلوى على شيء من هذا اوذاك لا يصطادك القانون اذ انك تفلت من ثقوب شباكه ولا ينالك عذاب الضمير ـ ان كان حياً ـ اذ انه ضعيف البصر في هذه المسالك .

اتراك مصدقي ان قلت لك ان جارك الذي سرت وراء جثمانه بالامس انت انت قاتله فقد كان ممن يسميهم علماء النفس « طبقة الاحساسين » اولئك الذين يحسون بدقائق الامور ويتألمون اشد الألم لامور قد نعتبرها تافهه وقد لا تكون كذلك وقد كان مريضا وكانت بسمتك الساخرة هي التي اوصلته الى ما يسمونها بالدرجة الحرجة فلفه بساط الموت ؟!

أتراك مصدقي اذا قلت لك انك انت انت الذي دفعت تلك المرأة المنطوية على نفسها الى الانتحار فقد كانت جلستك المملوءة بالغرور في احد باصات الامانة عاملا في تكوين عقدة نفسية لهذه المرأة ـ وقد كانت ترقبك عن كثب ـ ودفعت بها الى هذا الانتحار !! ..

قال: كفاك ياصاحبي كفاك ماأظن شيطان الشعر إلا اختارك رسولا تحسن رصف الكلام وتجيد تصوير الخيال كفاك غروراً بنفسك كفاك تنتقص القانون وتنتقص الضمير تحسب البعوضة جملا والذبابة فيلا انها طبيعة الشباب الثائرة تريد اكتشاف الآفاق فتصل ما تريد بعض الاحيان ولكنك تخفق بعض الاحيان فتضيع في فدافد الخيال وهم في وهم دونك الواقع وانبذ الاوهام

قلت اتحسب ان رائحة الجريمة لا تشم الا ممن وضعت بيديه الاصفاد وزج في غياهب السجون وشهدت ورقة بذلك كائنة ما كانت ؟ اتحسب ان ليس في جسم الميت وحدات تدب فيها الحياة ولشيع فيها الحركة ؟ اتعتقد ان « لا جريمة ولا عقاب الا بنص » ؟

*

كانت قد فتحت عينيها في بيت يعمه الفقر والبؤس والشقاء وكان ابوها غليظ القلب سود صفحته بضروب من الفسق والفجور وكان يقسو عليها قسوته على الحيوان فكان يضربها ضربا مبرحا لاتفه الاسباب وقد اذهب يوما بعضاً من سواد احدى عينيها بضربة من ضرباته الطائشة .

وكانت امها على عكس زوجها طيبة القلب سليمة الطوية وكانت على جهلها لاصول التربية وطرائقها تدرك ان ابنتها على شفا حفرة من النار ان لم يعجل عليها منقذ فهي واقعة فيها لا محالة وكانت لا تريد لابنتها اكثر من حفظ خلقها وصيانة عفتها الامر الذي يضيف الى جمالها جمالا فيكون رأس مالها في الحياة اما امر تثقيفها فلم يخطر لها على بال كان التفكير فيه

انقاذ هذه البنت شغل امها الشاغل واخيرا فقد ساقها تفكيرها الى ان تحمل هذه البنت الينا وهي تقول انقذوا هذه البنت من مخالب الذئب .. اجعلوها خادمة تخدمكم صيروها عبدة تطعمكم كدسوا عليها الاشغال ما تشاؤون . . طوعوها اضربوها . . قطعوا ايديها وارجلها ؛ افعلوا بها كل ما تشاؤن لي عفتها ولكم ما تشاؤون انقذوها من الذئب . . انقذوها من الذئب .

كانت طفلة لم تجز سن الحضانة بعد ولكنها شبت سريعاً واكتنزت لحماً وتيقظت فيها الغرائز قبل اوانها وهي وان اعتدلت بعض الاعتدال في خلقها عندنا الا انها كانت كثيراً ما ترتد الى خلقها السيء الذي غرسه في نفسها ابوها الفظ البهيم فقد طبعها على المشاكسة والتمرد والعناد وقد كانت بالاضافة الى هذا كثيرة العبث فيما لا يعنيها تنبش الزوايا وتعبث في كثير من الاسقاط وكنا لهذه الاسباب نحذرها ونخافها .

قلت لها يوما احضري قنينة « البترول » املأ السراج الذي اضعه على طاولة المطالعة واحضرت القنينة فوضعتها على الطاولة وانهيت الامر فرفعتها فاذا باثار من « البترول » تندى مساحة صغيرة من الطاولة وكانت بقربي علبة الثقاب فاولعت عوداً مسست بلهبه اثار « البترول » فاتقدت ثم انطفأت وشعرت اني ارتكبت خطأ فظيعاً فقد كانت هذه الطفلة ترقب ما افعل بنظرة حادة خفت منها وحقك واردت ان اقول شيئاً ولكني لم اقل انها البلادة والسلام .

ومر يوم ويوم . . وجلست وراء منضدتي فاذا بصرخة تخمش القلوب وهرعت فزعا صوب الصوت فاذا بالطفلة وقد تصاعدت ألسنة النار من اذيال ثوبها تلتهم بقية الثوب وتلسع جسدها لسعا لا هوادة فيه فراحت تنط متألمة نطات النمر وقد علا صريخها وقد صمد الواقفون حولها وتغلقت في وجوههم ابواب الحيلة أيسكبون الماء عليها ام ماذا يفعلون ؟!! واندفعت — وانا غير شاعر بما افعل — افرك اطراف الثوب بيدي حتى اطفأته جميعاً .

واستسلمت هي الى الفراش بعد اجراء ما يقتضيه الاسعاف الطبي وجلست انا وراء طاولتي امام محكمة الضمير .

بغداد : علي محمد علي الحسني

آراء حرة

١٦ من المهازل ان تشاهد المروة لم يتصف بها الا نفر مغلوب على امره ، والصدق لم يحتفظ به الا اناس صرعى امام الباطل والوفاء : لم يتحل به الا بشر يجنى الاتعاب والاوصاب وذلك يدعوهم للقول : قاتل الله الفضيلة لقد اصبحت جرما كبيراً .

١٧ ما كنت احسب ان الحق يملو عليه شيء ، ولكني وجدت في كثير من الامكنة التي تسهر لاحقاق الحق ان الجهال فوق الحق

١٨ قيل ان الكذب قبيح وقد لعن الله الكاذب في القرآن المجيد غير مرة ولكن وجدت ان من يؤنب الكاذب كاذب في تأنيبه .

١٩ يقول الشاعر العربي :

الى الماء يسعى من يغص بلقمة الى اين يسعى من يغص بماء

وهنا تصورت اكثر الذين عرضوا انفسهم للاصلاح يحتاجون الى الاصلاح .

٢٠ سئل حكيم هل للنذالة مقياس فقال نعم : ان من يعين على بلاده ويجعل وطنه لقمة سائغة للاجنبي فهو النذل ؛ قيل وهل أنذل منه احد ؟ فقال نعم : من يضحي بدينه ووطنه للاجنبي .

٢١ تسالم الفلاسفة على ان الحقيقة واحدة غير مثناة ، وظاهرة غير مستورة . ولكن هذا الرأي غير صحيح لاول وهلة بالنظر الى تشعب الفرق الاسلامية واختلاف قادة الروح فيما بينهم ولو كانت الحقيقة كذلك لادركوها .

٢٢ ثبت ان من يصاحب العدل والصدق في اعماله لا يستطيع ان يحصل على مائة دينار في العام الواحد بعد استهلاك الصرف ولكن تجارنا الجدد والقدماء لا يخلو مصرف من وجود نقود لهم تعد بالآلاف . فهل يستطيع احد منهم ان يقول بعد هذا اني لم اظلم وقد قال الله تعالى « ألا لعنة الله على القوم الظالمين »

٢٣ قرر الشرع الشريف بعد قول الله تعالى « أحل الله البيع وحرم الربا » مكافحة المرابي والضرب على يده ، ولكن الناس اقبلوا عليه كأن لم يذكر الله ذلك في الوقت الذي كنت اصيح واشاهد ان المرابي كان كالبغية اذا مشى يشار اليه ولا يقترب منه فتجلى لي سر انتشاره ان اختلط الحابل بالنابل وتساوى المثقف والجاهل .